

توطئة

الحمد لله تتأرجح بشذاها الإنسانية المؤدبة، وتموّج بندها الروحانية المهذّبة، وتتروح بها النفوس المضطربة، وتراح إليها القلوب المعدّبة، إنها طاقة تمدّ بفوحها أنفاس الأمل في الحياة، وباقه تجلّد بنفحها أسباب الرجاء في النجاة، ودوحة نتفياً ظلالها ومنتفع بثمارها، جذع تلك الدوحة "محمد بن عبد الله"، وأفنانها صحابة رسول الله - صلى الله عليه وسلم.

أما بعد

فقد لقي الإسلام في مسيرته صنوفاً من التحدّيات، بيد أن الإسلام تجلّت حيوية أجياله في قدرتها على مواجهة هذه التحدّيات، ومقابلتها بشجاعة وصبر، ونجح الشباب المسلم في تحويل هذه العقبات إلى معابر، يعبرون من خلالها إلى آفاق أوسع، حيث كان التحدّي في أن يصل الإسلام إلى الأذان والعقول والقلوب، وأن يتحمل المسلمون مسؤولية ذلك، فقد نالهم من الأذى البدني والاجتماعي، والاقتصادي، والفكري الكثير فهاجروا إلى الحبشة، وحصروا في شعب بني هاشم، ومع ذلك كله استطاعوا تكوين الجماعة المسلمة الناهضة بهذا الدين، وحملت أمانة تبليغه إلى الناس أجمعين.

وقد استطاعت تلك الجماعة الإسلامية أن تنمو داخلياً، وأن تكوّن ذاتها خارجياً، ومع هذه التحدّيات، وتلك الصعاب استطاع النبي - صلى الله عليه وسلم - إقامة الدولة الإسلامية الأولى في المدينة المنورة بعد هجرته إليها، وبني المسجد

النبوي؛ لترتفع كلمة الحق، وسترتفع بإذن الله إلى أن تقوم الساعة، ويقسم
المجرمون ما لبثوا غير ساعة.

كما أن الإرهاب ظاهرة غريبة على جسم الأمة الإسلامية، بل ودخيلة على
الإسلام وأهله، وما يحدث في هذه الآونة من إرهاب يتجلى في الحوادث التي أرهقت
فيها الأرواح البريئة، ورملت النساء، ويؤم الأطفال دُونَما ذنب جنوه، أو إثم اقترفوه،
أو سيئة اجترحوها، كما هو جنابة لا تغتفر على الاقتصاد الذي يجب على الجميع
حراسته وحمايته، وأن يحمل كل مواطن على عاتقه إثناءه؛ لإسعاد الشعب المصري،
وازدهاره حتى لا تمتد أيدينا إلى المساعدات الخارجية، وإن مدّت فإشأ تكون بقدر
وبحساب؛ كي يعيش هذا الشعب ويدخل في حلل السعادة، والازدهار والنمو والتقدم.
وبإذن الله سيتحقق الرخاء، والانتعاش والقضاء على هذه الظاهرة
الغريبة، ولن ينالوا بإذن الله من هذا الشعب العظيم.

وقول أمير الشعراء "أحمد شوقي" :-

الله أكبر إن دين محمد من خير أديان البرية دينا
لا تذكر واكتب السوالف عنده طلع الصباح فأطفئ القنديلا

والله الموفق والمعين

المؤلف

أ . د / علي الخطيب

أستاذ ورئيس قسم الأدب والنقد

والعميد الأسبق لكلية اللغة العربية

جامعة الأزهر - فرع جرجا - سوهاج

إن العالم كله الآن يموج بتيارات من الفتن، تقض مضجعه، وتورق أهله، وتجعلهم يعيشون في جو من الإضراب، والقلق النفسي، وقذف الله في قلوبهم الرعب، وفقدوا نعمة من أجل النعم وأعظمها، وهى نعمة الأمن.

فلقد امتدح القرآن الكريم نعمة الأمن في أكثر من آية في القرآن الكريم، يقول الله - عز وجل - : ﴿ أَوْلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا مَّأْمِنًا وَيُخَاطَفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفِيَ الْبَطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴾ [سورة العنكبوت: ٦٧] ويقول الله - عز وجل - أيضاً: ﴿ لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ ۝١ إِيْلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ ۝٢ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ ۝٣ الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَءَامَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ ۝٤ ﴾ [سورة قريش: ٤] .

وقال - تعالى - : ﴿ وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [سورة الأنعام: ٨١]، ويقول - سبحانه وتعالى - : ﴿ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ ﴾ [سورة الأنعام: ٨٢]، وقال - عز من قائل - : ﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِيَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴾ [سورة النحل: ١١٢] .

وقال - صلى الله عليه وسلم - : "من بات آمناً فى سريه، معافى فى بدنه، عنده قوت يومه، فكأنما حيزت إليه الدنيا بحذافيرها".

ولقد تفشت في هذا العصر الأنكر ظاهرة القتل على يد الجماعات الإرهابية، وابتليت جميع الدول بهذه الظاهرة، وهى من علامات الساعة الصغرى، كما أخبر بذلك المعصوم - صلى الله عليه وسلم - في قوله - عليه الصلاة والسلام :

"والذي نفسي بيده، ليأتينَّ على الناس زمان لا يدري القاتل فيما قتل، ولا المقتول فيما قُتل"^(١)، وذلك أن الناس يقتل بعضهم بعضاً دونما هدف، كما أن في ذلك استخفاف بدماء الناس، وهو أيضاً من علامات الساعة الصغرى، قال - صلى الله عليه وسلم - : "بادروا بالأعمال ستاً: إمارة السفهاء، وكثرة الشرط، وبيع الحكم، واستخفافاً بالدم، وقطيعة الرحم، ونشؤاً يتخذون القرآن مزامير، يقدمون أحدهم ليغذيهم وإن كان أقلهم فقهاً"^(٢).

وظاهرة الإرهاب دليل على انعدام الفقه لتعاليم الإسلام السمحة، حيث إن الإسلام دين سمح، كما أنه دين الذوق والبروة، والنجدة والتعاون، والرحمة، والعدالة، وكرم الضيافة، وحسن الخلق، وإتباع السيئة بالحسنة، والتسامح، كما أنه دين الحضارة الإسلامية العريقة، والتي حمل ألويتها المسلمون الأول.

فلقد وصف الله سيدنا محمداً قائداً للإسلام والمسلمين بالخلق، قال - تعالى -: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [سورة القلم: ٤]، وفي مجال الأخلاق الفاضلة الكريمة بين الله - عز وجل - أن هذه الخلة، وتلك الخصلة لا تسمو فوقها خصلة أخلى من الخصال، فإن ابنى آدم: "قاييل، وهاييل" حينما قرّبا قرباناً لله - عز وجل - ﴿... فَتُقْتَلُ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُنْقَبَلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ [سورة المائدة: ٢٧]، الملاحه ولفته وتوجيه وإرشاد إلى أن السبيل المؤتى لقبول الطاعات إنما هو التقوى، فهدده أخوه بالقتل دونما ذنب جناه، أو إثم اقترفه، أو جرم اجترحه، "قال لأقتلنك"، ثم طوعت له نفسه قتل أخيه

(١) رواه مسلم عن أبي هريرة .

(٢) حديث صحيح: رواه الطبراني عن عابن الغفاري، ورواه أحمد في مسنده، وذكره الألباني رقم (٩٧٩).

فقتله، وكان جوابه لأخيه على ذلك التهديد الصارخ، والظاهرة الإرهابية المأكرة، الخداعة ما حكاها القرآن الكريم على لسان أخيه رداً على تهديده له: ﴿لَئِن بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ...﴾ لماذا؟ ﴿...إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ [سورة المائدة: ٢٨]، ﴿فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [سورة المائدة: ٣٠]. وكان ذلك أول دم يراق في الأرض، وهو قتل قابيل لهابيل.

وحينما طغى "فرعون" وتجبى، وعاتت فساداً في الأرض وتكبر، وأمر الله "موسى" وأخاه بالذهاب إلى "فرعون" كان من المناسب أن يقابل الطغيان بالطغيان، والظلم بالظلم، والبغي بالبغي، والجبروت بالجبروت، ولكن الأليق والأفضل أن يواجه ذلك كله بالخلق، وذلك ما حدث حيث صدرت التوجيهات الربانية والأوامر العلوية من الله - عز وجل - إلى "موسى وهارون" بقوله - عز وجل - : ﴿أَذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ﴾ (٤٣) ﴿فَقُولَا لَهُ، قَوْلًا لِّئِنَّا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ [سورة طه: ٣٤: ٤٤].

وكانت السيدة الفضلى "عائشة" - رضوان الله عليها - إذا نظرت إلى المرأة لتحسن هنداها تقول: "اللهم كما حسنت خلقي فحسن خلقي".

ذلك هو الإسلام الذي يحترم الإنسانية جمعاء، وحرمة الدم، بل إنه يحترم حرمة الحيوان، حيث ينبئنا الرسول - صلى الله عليه وسلم - أن امرأة دخلت النار في هرة حبستها، لا هي أطعمتها، ولا هي تركتها تأكل من خشاش الأرض.

ذينكم هو الإسلام الذي لا تشوبه شائبة، والذي يعال الناس أجمعين، مسلمين وكافرين على السواء بأنهم جميعاً لآدم، قال - صلى الله عليه وسلم -:

"كلكم لادم وآدم من تراب، لا فضل لعربي على أعجمي، ولا لأسود على أحمر إلا بالتقوى".

كما أن الإسلام قضى على الشعوبية، ووأد العصبية، حيث نسب سلمان الفارسي إلى آل البيت على الرغم من أنه من فارس، فقال - عليه السلام -: "سلمان منا آل البيت".

ويروى أن علياً بن أبي طالب - رضي الله عنه - فخر على "سلمان" يوماً فقال له عليّ: "أنا أقرب منك لرسول الله - صلى الله عليه وسلم -". فشكاه "سلمان" لرسول الله - عليه السلام - فقال له النبي - صلى الله عليه وسلم - صاحب الذوق الرفيع، والأدب الجم العالي، مطيباً خاطره، ومهدئاً من روعه، ومؤنساً لنفسه: "أما أنت يا عليّ فقريب قرابة، وأما أنت يا سلمان فقريب قرابة"، والقرابة دم ولحم، والقرابة جسد وروح، وبذلك خفف عنه ما وجده من آلام، وعرفه أن الإسلام يضرب بيد من حديد على النزعات والعرقية المبنية على أساس الجنس، أو اللون، أو غير ذلك مما يكون سبباً في الفرقة والجفاء.

ويقول - صلى الله عليه وسلم - : "ليس ممّا من قاتل على عصبية، ليس ممّا من دعا إلى عصبية، ليس ممّا من مات على عصبية".

من هذا المنظور الإسلامي نستطيع القول بأن الإسلام برئ من الإرهاب، تلك الظاهرة الغربية على جسم الأمة الإسلامية براءة الذئب من دم "ابن يعقوب"، وأن الذين يحملون لواء الإرهاب ويرفعون رايته هم أناس دخلاء على الإسلام، ولا يفقهون شيئاً من تعاليمه السمحة، إنما هم أناس يتعلمون يوم السبت ويتخرجون يوم الأحد، ويتصدرون الفتوى يوم الاثنين، ويكفرون الناس يوم الثلاثاء، فبضاعتهم

قليلة بل مزجاة، وفقههم للدين ضل، فلا يوجد دين فضلاً عن الإسلام صاحب الخلق الكريم يبيع الدماء، أو يستحل القتل.

وما حدث في مصر العربية الإسلامية من قتل ونهب من بعض الشباب في الحكم البائد "حسنى مبارك" لا يعد تعبيراً عن الخط الإسلامي، أو المنهج الديني، إنما هم شرذمة قليلة، وفئة ضالة لا تفقه شيئاً في الإسلام، ولا تمثل إلا أفكارها البالية، ومعتقداتها الخاطئة، والإسلام من ذلك براء كما أومأنا إلى ذلك آنفاً.

من تلك الحوادث الإرهابية حادثة الأقصر في صعيد مصر الطيب صاحب الشهامة، والنجدة، والمروءة، والرجولة، والكرم، كما أنه صاحب الحضارة العريقة، والتي تفاخر مصر بها غيرها من جميع دول العالم، وصدق أمير القوافي حين قال:

أصل الحضارة في صعيدك ثابت ونباتها حسنٌ عليك مخلّق (١)

فالصعيد صاحب الحضارة، والأقصر هي عاصمة مصر قبل القاهرة في الزمن الغابر، وكانت تسمى "طيبة"، وهي المسماة الآن "بالأقصر"، ويقول العلماء: إن ما بها من آثار يبلغ "ثلث آثار العالم"، ولمعرفة السائحين من جميع دول العالم بما لمصر من مكانة رائقة، وحضارة عريقة؛ لذلك يفدون إليها من شتى البقاع، ومختلف الأصقاع.

والسياحة في الإسلام أمر مهم، فهو ترويح عن النفس، قال - صلى الله عليه وسلم - : "رَوِّحُوا عَنِ النَّفُوسِ سَاعَةً بَعْدَ سَاعَةٍ، فَإِنَّ الْقُلُوبَ إِذَا كَلَّتْ عَمِيَتْ"، وإن القرآن الكريم كتاب الله وبيانه، ووحيه وتنزيله وبيانه، وهدها وسبيله، به قسم الله ظهر كل شيطان مرید، وأدلّ به كل جبار عنيد، وإن القرآن الكريم هو أول كتاب سماوي لفت أنظار الإنسانية جمعاء إلى قانون يسمى "قانون السير والنظر"، قال -

(١) الديوان ٦٥/١ . مخلق : متطيب .

تعالى: ﴿أَوْلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُظِلِّمَهُمُ اللَّهُ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾ [سورة الروم: ٩]

ويقول - سبحانه وتعالى - ﴿أَوْلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَّاقٍ ﴿٢١﴾﴾ [سورة غافر: ٢١]

فزيارة الآثار تسمى الناس أن الذين كانوا من قبلنا كانوا أشد قوة، وأقوى تفكيراً، وعمروا الأرض بهذا الفن العظيم، فن الآثار، والنحت، والتصوير، وهى جميعاً من الألوان الجمالية المحببة إلى النفس البشرية، بيد أننا ننظر إلى هذه الفنون بوصفها فنوناً لأمم أخرى يجب أن نتعامل بها من باب العبرة والعظة والحضارة والتقدم، وأن نأخذ منها الحكمة حيث إن الحكمة ضالة المؤمن أنى وجدها أخذها.

ويقول - عز وجل - ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا فَثَلَّ عَلَيْهِمُ اللَّهُ ذُلًا مِّن قَبْلِهِمْ لَمَّا كَانُوا هُمْ أَشَدَّ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَجَاءَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَّاقٍ ﴿١٠﴾﴾ [سورة محمد: ١٠]. فهذا قل من كثرة وقطرة من بحر ما ورد في كتاب الله والسنة النبوية المطهرة.

والسائحون الأجانب إنما وفدوا إلى مصر قاهرة المعزلدين الله الفاطمي للسياحة، والنظر في آثار الغابرين، فواجب علينا تأمينهم وحمايتهم؛ لنريهم الوجه الحضاري في أسمى صورته، وهم ضيوف علينا، فواجب إكرامهم لقول الرسول - صلى الله عليه وسلم - : "من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه"، كما أنه واجب علينا جوارهم؛ لقول الله - عز وجل - ﴿وَإِن أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ اتَّبِعْهُ مَأْمُومًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾﴾ [سورة التوبة: ٦]

وحينما قفل النبي - صلى الله عليه وسلم - آيياً من الطائف، كسير القلب، مفضور الفؤاد، وتأكد أن أخبار ثقيف قد سبقته إلى قريش، رأى الرسول - عليه السلام - ألا يدخل مكة حتى يستوثق لنفسه ودعوته، فبعث إلى "المطعم بن عدى" يعرض عليه أن يجيره حتى يبلغ رسالة ربه، فقبل "المطعم بن عدى"، واستنهض أبنائه، فحملوا أسلحتهم، ووقفوا عند أركان البيت الحرام، وتسمم "المطعم" ناقتة ثم نادي: يا معشر قريش، قد أجرت محمداً - صلى الله عليه وسلم - فلا يهجه أحد منكم". فلما انتهى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إلى الكعبة صلى ركعتين، ثم انصرف إلى بيته، و"مطعم" وأهله يحرسونه بأسلحتهم (١).

وقيل: إن "أبا جهل" سأل "مطعماً": أمجير أم متابع - يعنى مسلم - قال "مطعم": بل مجير. فقال له: قد أجرنا من أجرنا (٢). وكان "المطعم" على دين أجداده، وحفظ رسول الله - صلى الله عليه وسلم - "للمطعم" هذا الصنيع، صنيع المروءة والنجدة، فقال يوم أسرى بدر: "لو كان "المطعم" حياً لتركت له هؤلاء النتنى" (٣).

نقتبس من هذه الأضواء النبوية وموقف "المطعم بن عدى" وأبنائه، ودخول النبي - صلى الله عليه وسلم - في جواره وجوار أولاده أنه من الواجب علينا تأمين السائحين حتى يؤوبوا إلى بلادهم آمنين شاكرين لمصر الحضارة، ولمصر الإسلام، ولمصر الأزهر الشريف، ولمصر المآذن، ولمصر المروءة والنجدة، والأخلاق العالية.

(١) ذكره ابن جرير ٨٢/٢، ٨٣.
(٢) فقه السيرة: للغزالي - دار الريان للتراث ص ١٣٥ - الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ-١٩٨٧م.
(٣) ذاته.

أما الذين يرون في الآثار أنها أصنام، فهؤلاء ختم الله على قلوبهم، وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ولهم عذاب عظيم؛ حيث إننا لم نقم بصنع هذه التماثيل لأنها مخالفة للشريعة الإسلامية، لكننا نفيد منها أن الله قد أهلك من صنعها، ودمر من قام بها وأنشأها مع ما تدل عليه من قوة من صنعوها، وجبروت من نحتوها، ونظرتنا إليها نظرة إسلامية، إلا وهي نظرة "العظة والعبرة"، حيث إنهم لم يستطيعوا ولن يستطيعوا خلق الروح فيها، فيزداد إيماننا بالخالق - سبحانه وتعالى - حيث إنه صورنا فأحسن صورنا، وجعلنا نهتف بقوله - تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ رَبِّكَ الْكَرِيمِ ﴿٦﴾ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوِّكَ فَعَدَلَكَ ﴿٧﴾ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ ﴿٨﴾﴾ [سورة الانفطار: ٦: ٨]، كما أن واجب الشعب أن ينهض لمساندة الأمن، ومقاومة هؤلاء الدخلاء المنحرفين عن الصراط السوي المستقيم؛ حتى نعيش في بلادنا آمنين مطمئنين، مستقرين اقتصادياً وسياسياً وعسكرياً، ويومذاك نستطيع القول للسائحين وغيرهم: ﴿...أَدْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ مَأْمِنِينَ ﴿١١﴾﴾ [سورة يوسف: من الآية ٩٩]، وقد قال بعض المفسرين: إن المراد هنا "بمصر" هي مصر المحروسة^(١)، وهي بإذن الله مصادنة محروسة.

وقد أنبأنا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أن من علامات الساعة الصغرى الاستخفاف بالدم، وهو ما نراه واقعاً ملموساً في هذا العصر، ويتكرر في حياتنا اليومية، قال - صلى الله عليه وسلم - : "بادروا بالأعمال ستاً: إمارة السفهاء، وكثرة الشرط، وبيع الحكم، واستخفافاً بالدم، وقطيعة الرحم، ونشواً يتخذون القرآن مزامير يقدمون أحدهم ليغنيهم وإن كان أقلهم فقهاً".

(١) مفردات غريب القرآن: للراغب الأصفهاني.

فإراقة الدماء حرام شرعاً، إلا إذا كانت بحق أو قصاصاً، قال الله - تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [سورة البقرة: ١٧٩]، يقول علماء البلاغة: "إن التنكير هنا يفيد التعظيم"، أي: ولكم في القصاص حياة عظيمة يا أصحاب العقول السليمة الواعية. وقالت العرب: "القتل أنفى للقتل"، ويون شاسع، وفرق بعيد بين الآية القرآنية الكريمة والعبارة العربية فليس كل قتل أنفى للقتل، بيد أن القصاص أنفى للقتل، والعبارة العربية فيها تكرار، بخلاف الآية الكريمة، حيث لا تكرار فيها.

ويقول الدكتور/ "عبد الجواد الطيب" في تفسير قوله - تعالى - : "وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ" : "هذا بيان لأهمية القصاص وأثره البالغ في حياة الفرد والمجتمع، وقد تناولته الآية على وجه من البلاغة، لا يُبلغ شأوه، فجعلت الشيء محلاً لضده حين جعلت من القصاص حياة؛ لأنه تنظيم للقود، فلم يعد يُقتل الجماعة بالفرد، عصمة من الثأر الذي يسبب الفوضى، ويهدر الأمن، ويتعرض فيه للقتل غير القاتل نفسه، ثم إنه حياة فعلاً لأنه إذا همّ إنسان بالقتل حسب حساباً للقود فيحجم عنه، فيسلم هو ويسلم صاحبه، وإذا فعل فالقصاص يجعله عبرة لغيره"^(١).

وقد اهتم رسولنا الكريم - صلى الله عليه وسلم - بحرمة الدماء، يتجلى ذلك في خطبته - عليه السلام - في "حجة الوداع" حيث قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بعد أن حمد الله وأثنى عليه : "أيها الناس ، اسمعوا قولي، فإنني لا أدري لعلى لا ألقاكم بعد عامي هذا بهذا الموقف أبداً، أيها الناس، إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام إلى أن تلقوا ربكم، كحرمة يومكم هذا، وكحرمة شهركم هذا،

(١) الإعراب الكامل لآيات القرآن الكريم: للدكتور/ عبد الجواد الطيب ٩٣/٢ - مكتبة الآداب ومطبعتها بالجماهير.

وإنكم ستلقون ربكم فيسألكم عن أعمالكم، وقد بلغت، فمن كانت عنده أمانة فليؤدها إلى من ائتمنه عليها، وإن كل رباً موضوع، ولكن لكم رؤوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون، فضي الله أنه لا ربا، وإن ربا "عباس بن عبد المطلب" موضوع كُله، وإن كل دم في الجاهلية موضوع، وإن أول دمائكم أضع دم "ابن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب"، وكان مسترضعاً في بني ليث فقتله "هذيل"، فهو أول ما بدأ به من دماء الجاهلية"^(١).

ويعيننا هنا هذه الجملة من خطبة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وهي: "إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام"، وهي جملة اسمية مؤكدة بيان، وخبرها جملة اسمية قدم فيها الخبر "شبه الجملة" على المبتدأ "عليكم حرام"، وفي رواية البخاري: "... فإن دماءكم وأموالكم" قال محمد راوي الحديث: وأحسبه قال: "وأعراضكم عليكم حرام"^(٢).

وفي رواية "الواقدي" - وهي تنتهي إلى "عمرو بن يثربي"، وعبد الله بن عباس - جاء الخبر جملة فعلية فعلها ماض مسبوقة بـ "قد": "إن الله قد حرم دماءكم وأموالكم وأعراضكم"، ففيها تأكيد مضاعف، وداعي التوكيد هنا الرغبة في توثيق هذا الأمر في النفوس، وتثبيتته في القلوب في هذا اللقاء الجامع، الذي لا يتكرر مرة أخرى، ومن المعروف أنه في المدة التي تلت فتح "مكة" وغزوة "حنين" قد دخلت الوفود في دين الله أفواجا، وكثير ممن كان في صحبة الرسول - صلى الله عليه وسلم - يوم حجة الوداع لم يكن قد انفصم عن ماضيه الذي كانت تستباح فيه

(١) سيرة ابن هشام ١٨٥/٤ وما بعدها - مكتبة الكليات الأزهرية - تعليق: طه سعد - ١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م.
(٢) صحيح البخاري بشرح الكرمانى ٢١٢/١٦.

الدماء والأموال والأعراض، على الأقل بالنسبة للقبائل المعادية، فكان لا بدّ من هذا التأكيد.

ونلاحظ هنا أن الدماء والأموال - والأعراض في الروايات الأخرى - جاءت بصيغة الجمع المضاف إلى ضمير الجماعة، وهذا يعنى أن دم الفرد وماله وعرضه هو دم الجماعة ومالها وعرضها، وهى مسئولة عن صيانتها والحفاظ عليه، والدفاع عنه، والقتال دونه، ويعنى أيضاً أن كل فرد مسئول في حدود قدراته عن دم غيره وماله وعرضه، وبهذا تتحقق مسئولية الجماعة عن الفرد، ومسئولية الفرد عن الجماعة بصورة لا نظير لها في أي مجتمع آخر.

وهذا حديث شرحه يطول، نكتفي منه بهذه اللمحة، ونضيف إليه الحديث الذي رواه "النعمان بن بشير" عن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال: "مثل القائم على حدود الله والواقع فيها، كمثل قوم استهّموا على سفينة، فأصاب بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها، فكان الذين في أسفلها إذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم، فقالوا: لو أنا خرقنا في نصيبنا خرقاً ولم نؤد من فوقنا، فإن يتركوهم وما أرادوا هلكوا جميعاً، وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعاً"^(١).

أما الترتيب فإن الدماء قدمت على الأموال في كل الروايات التي راجعتها، وفي رواية الواقدي تلا الدماء والأموال ذكر الأعراض، والسبب في ذلك فيما نعتقد: أن دم الإنسان مقدّم على ماله، وأنه أعلى منه وأثن، وأن العقوبة على سافك دم غيره أقطع من العقوبة على أخذ مال غيره، فالتقديم مبنى هنا على الأهمية.

(١) رواه البخاري وأحمد والترمذي واللفظ للبخاري. وأيضاً فطوف من ثمار الأدب الإسلامي - تأليف: الدكتور/ على أحمد الخطيب.

ولكن هل يقل العرض في أهميته عن المال حتى يؤخر عنه؟
وللإجابة على هذا السؤال ينبغي أن ننظر في جرائم الأعراض والأموال، فما الذي نراه؟ إنك تلاحظ أن جرائم الأموال في العادة أكثر من جرائم الأعراض، ونرى كذلك أن مواطن الشبه في الأموال التي يجب أن تتقى أكثر من مواطن الشبه في الأعراض، فالحلال والحرام في الأعراض واضحان وضوحاً بيناً بلا أدنى شبهة، وليس كذلك الأموال؛ لتشابه المعاملات بين الناس وتداخلها، فالاقتراب من الحرام والخوض فيه أكثر في الأموال منه في الأعراض؛ من أجل ذلك فيما تبين لنا قدم هنا الأموال على الأعراض وإن كان قد ساوى بين الثلاثة في حرمتها هذه الحرمة المغلظة.

ويأتي هنا قوله: "عليكم حرام" باستخدام "على" التي تفيد الاستعلاء، وفي رواية "الواقدي" أسند التحريم إلى الله مباشرة "إن الله قد حرّم"، والمعنى في الروایتين: إن التحريم آت من أعلى، وكل رواية تفيد هذا المعنى بصيغتها الخاصة بها، ولكنه يبقى فيهما شاخصاً ماثلاً، وهذا من شأنه أن يمكن المعنى في النفوس، ويدفعها إلى الاستجابة والتنفيذ.

ثم ما معنى إن الدماء والأموال والأعراض حرام؟ حتى يتبين المعنى ويتضح لا بد من تقدير محذوف، فالأسلوب من قبيل الإيجاز بالحذف؛ لأنه من المعروف أن الذوات لا يتعلق بها تحريم ولا تحليل، وهذا ما سوّغ هذا الإيجاز، فالذي يسمح أن الله حرّم الدماء لا ينصرف ذهنه إلى تحريم ذات الدماء، وإنما ينصرف هنا بحسب المقام إلى تحريم سفكها وانتهاكها، والاعتداء عليها مثلاً، وليس كذلك تحريم الدم في قوله -تعالى-: ﴿حَرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أَلْمَيْتَةَ وَالْدَّمَ وَلَحْمٌ...﴾ [سورة

المائدة: ٣] (١)؛ لأن المعنى حينئذ كما يقتضيه المقام : حرم عليكم أكل الدم أو شربه أو تناوله مثلاً، أو الانتفاع به، فالمقام هو الذي يحدد المحذوف المقدر، ولكن الذهب في كل الأحوال لا يمكن أن يتخلى عن التقدير.

أما تحريم الأموال فإنه يقتضى أن يحرم أكلها بين الناس بالباطل، مصداقاً لقوله - تعالى - : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ ... ﴾ [سورة النساء: ٢٩].

وحرصاً وصيانة للدماء من الإهدار نرى القرآن الكريم يحافظ على هذا المعنى، ويحذر من الاعتداء على حرمة الدم، فيقول الله - سبحانه وتعالى - :

﴿ وَكُتِبَ عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنْ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ [سورة المائدة: ٤٥] .

من هذا كله يستبين لنا بجلاء ووضوح تامين أن الإسلام يرفع حرمة الدماء، وحقوق الإنسان قبل أن تعرفها النظم الدولية الحديثة، وصدق الله - عز وجل - حين قال: ﴿ ... وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ [سورة النحل: ٨٩] .

كلمة أخيرة: واجب على الدعاة وعلى كل مسلم توعية الشباب المسلم؛ حتى يعصمه من الانزلاق في مهاوى الانحراف والزلل، وذلك بالإرشاد والتوجيه، والدعوة إلى الله من منظور قول الله - عز وجل - : ﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَحَدِّ لَّهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾ [سورة النحل: ١٢٥]، والنأي عن طريق العنف حتى لا تشوه

(١) وينظر: من أسرار البيان النبوي: تأليف: الدكتور/ أحمد محمد على - دار الصحوة ص ٨١.

صورة الإسلام، وليظل الإسلام شامخاً بقيمه ومبادئه القويمة، ومنهاجه الواضح،
وخلقه الكريم:

﴿ قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي - أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا
أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [سورة يوسف: ١٠٨]

وقوله - سبحانه وتعالى -:

﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجِدْ لَهُمِ بِالَّتِي هِيَ
أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾

[سورة النحل: ١٢٥].